مقدمة

يا لك من محظوظ إن كنت لا تتصفح هذا المجلد في إحدى المكتبات أو عبر الإنترنت، بل مالك له فخور به، وقد أنزلته للتو من الرفّ المخصص للكتب التي يُرجَّح أن تثير إعجاب ضيوفك. والأكمل من ذلك أن يكون بجوار الجزأين الأولين من «تاريخ الفلسفة بلا ثغرات». وإذا كان الأمر كذلك، فربما لاحظتَ أنه أكثر سُمكًا من المجلد الثاني، «الفلسفة في العالَمين الهلنستي والروماني»، الذي كان بدوره أكثر سُمكًا من المجلد الأول، «الفلسفة الكلاسيكية». وكحال أبٍ في منتصف العمر يَحُول التزامه بالعمل وشؤون الأسرة دون تفرغه لممارسة الرياضة بانتظام، فإن «تاريخ الفلسفة» لديه أعذار معتبرة لازدياد حجمه. ففي المجلد الثاني تناولنا ألف عام كاملة من الفلسفة، امتدت من معاصري أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد إلى العصر القديم المتأخر مع بوثيوس ومكسيموس المعترِف. أما هذا الكتاب الذي بين يديك فيسعى لإشباع شهيتك الفلسفية بقدرٍ أكبر، إذ يغطي فترة زمنية أوسع بكثير، ومجالًا جغرافيًّا أرحب أيضًا.

إن المجلد الذي أنت على وشك قراءته موجَّه إلى جمهور عام، شأنه شأن سابقيْه. إذ لا تحتاج إلى أكثر من اهتمامك بالموضوع سلاحًا في هذه الرحلة. وقد حاولت ألّا أفترض أن لديك معرفة سابقة بالمساحات التي تناولها المجلدان الأولان، وإن كانت هذه المعرفة بالطبع نافعة. وكعادتي، فإن مقاربتي تتبع الترتيب الزمني، وإن كانت بعض الموضوعات تعمل باعتبارها أفكارًا مركزية في السرد بأكمله (أما من يفضّل عرضًا أكثر اختصارًا ذا هيكل موضوعاتيّ فليراجع كتابي الصادر حديثًا «الفلسفة الإسلامية: مقدمة

قصيرة جدًّا»[1]). بعض هذه التيمات متوقَّع: كالتفاعل مع التراث الفلسفي اليوناني، واستخدام الفلسفة في الدفاع عن الإسلام وتفسيره، ومحاولات البرهنة على وجود الله، والبحث في طبيعة النفس الإنسانية ومصيرها. وبعضها الآخر قد تكون أقل توقّعًا في ظنّي. ومن بين التيمات الفلسفية المتكررة التي حظيت باهتمام خاص في هذا المجلد مسألة القبول الأعمى للتعاليم الموروثة، وهو ما يُعبَّر عنه في العربية بـ «التقليد». وقد أثار تكرار ظهور هذا الموضوع انتباهي إلى حدّ أنني قررتُ، أثناء مراجعة الكتاب، أن أضيف مادة إضافية حول «التقليد» في الإمبراطورية العثمانية (الفصل الثامن والخمسين)[2].

لعلّ أكثر ما سيلفت انتباه العديد من القراء في هذا الكتاب هو الاهتمام الذي أوليته للمفكرين غير المسلمين في العالم الإسلامي. فالمؤلفات التمهيدية الأخرى عادةً ما تتناول إما «الفلسفة الإسلامية» أو «الفلسفة اليهودية (القروسطية)»، وقد تُلقي هذه المؤلفات نظرة سريعة على التراث الديني الذي لم يُركّز عليه الكتاب[3]. لكن بحسب علمي يُعدّ هذا أول مجلد تمهيدي عام يقدّم معالجة مفصلة ومخصصة للفلسفة في العالم الإسلامي ضمن كل الديانات الإبراهيمية. وتجد معظم المواد المتعلقة بالفلسفة اليهودية في القسم الثاني المكرس للأندلس، وإن كان ثمة مناقشات لعدد من المفكرين اليهود الأوائل في الجزء الأول أيضًا. وهذا ما أتاح لي عرض الفلسفة اليهودية في العصور الوسطى ضمن سياقها الثقافي والفكري الصحيح. وبالطبع، ما يزال هناك الكثير مما سيُقال عن تاريخ الفلسفة اليهودية في المجلدات القادمة، مع فلاسفة النهضة مثل سبينوزا وموسى مندلسون وغيرهما. غير أن تناول الفلسفة في

(1) P. Adamson, A Very Short Introduction to Islamic Philosophy (Oxford, 2015).

(2) أضفتُ هذه المادة لأسباب منها أن آخذ في اعتباري كتاب جديد مهم لم يظهر إلا خلال مراجعتي لهذا المجلد:

K. El-Rouyaheb, Islamic Intellectual History in the Seventeenth Century: Scholarly Currents in the Ottoman Empire and the Maghreb (Cambridge, 2015).

(3) على سبيل المثال، يتضمن كتاب «مرجع كامبردج في الفلسفة اليهودية القروسطية Cambridge Companion to Medieval Jewish Philosophy» فصلًا عن «السياق الإسلامي Islamic context» بقلم جويل كريمر J. L. Kraemer، في حين يحوي الكتاب ثنائي المجلد «تاريخ الفلسفة الإسلامية History of Islamic Philosophy»، الذي نشرته دار روتليدج، فصلًا بقلم لين جودمان L. E. Goodman عن الفلسفة اليهودية في العالم الإسلامي.

العالم الإسلامي «بلا ثغرات» يقتضي بالضرورة دراسة هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الفلسفة اليهودية. أما الفلسفة المسيحية في العالم الإسلامي، وإن كانت أقل حجمًا، فلا تقل أهمية، ولاسيما ما يُعرف بـ «مدرسة بغداد» للمفكرين المسيحيين الأرسطيين.

لقد استند هذا الكتاب إلى النصوص المعدّة لسلسلة بودكاست «تاريخ الفلسفة»[4]، إلا أنني أجريت عليها، كالمجلدين السابقين، مراجعات واسعة وأضفت مواد جديدة، منها، كما أسلفتُ، معالجة قضية التقليد في العصر العثماني. وتمتاز هذه النسخة كذلك بتوفيرها مراجع للنصوص الأصلية التي نناقشها، إلى جانب حواشٍ واقتراحات إضافية للاستزادة. وآمل أن تكون هذه الإضافات دافعًا ومُعينًا لك لاستكشاف أوسع لهذا الحقل الذي شهد في العقود الأخيرة حيويةً متجددة وأصبح من أكثر نطاقات تاريخ الفلسفة إثارة. وبفضل الزيادة المضطردة في الترجمات الدقيقة والموثوقة، لم يعد من الضروري إتقان العربية (أو العبرية أو الفارسية) للتعرّف على الكمّ والكيف المدهش من الإنتاج الفلسفي في العالم الإسلامي. الحق أنني عندما أطلقتُ هذه السلسلة من البودكاست والكتب، كان أحد أهدافي أن أبني جمهورًا من المهتمين بالفلسفة القديمة، راجيًا أن يواصلوا المسيرة معي عندما أصل إلى المناطق الأقل شهرة التي يغطيها هذا الكتاب. فإن كنتَ قد وصلتَ إلى هنا بعد قراءتك للمجلدين الأولين، فلك جزيل الشكر على مواصلة الرحلة. وإن كنتَ جديدًا على السلسلة، فآمل أن تجد هذا الكتاب مستقلًا ومُرضيًا. وفي كلتا الحالتين، أدعوك الآن إلى الشروع في قراءة الجزء الثالث من «تاريخ الفلسفة بلا ثغرات».

(4) متاح على موقع:

www.historyofphilosophy.net.